تجلیات القرآن

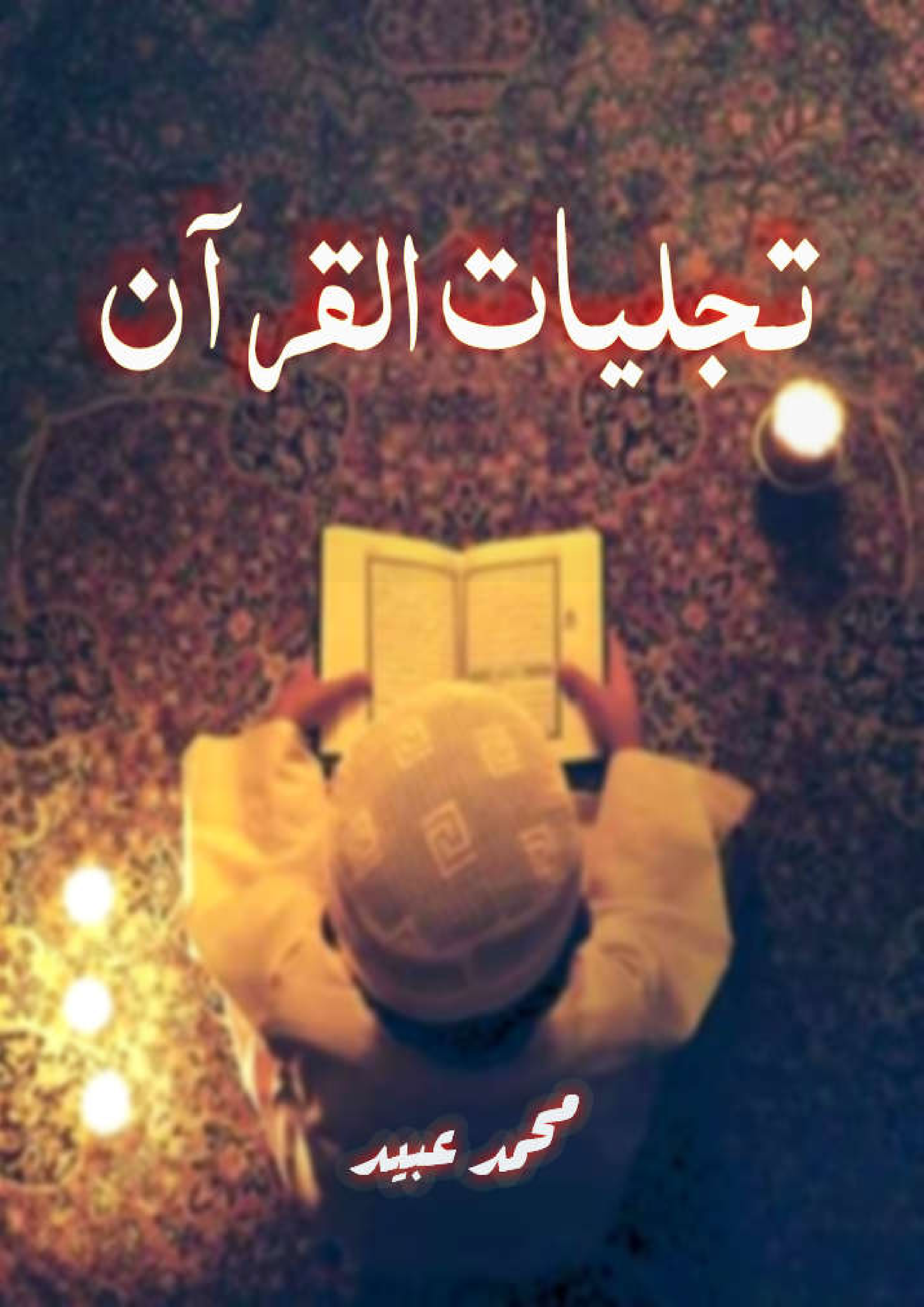

محمد عبید

تجلّیات القرآن

محمد عبید

الحمد لله الذي جعل القرآن نورا هدانا به من ظلمات الضلالة، ورحمة وشفاء من داء كل عمى وجهالة، وبعد؛ فإنه لما كان كتاب الله العزيز كذلك، وكانت حكمته عز وجل اقتضت إنزاله على الأساليب العربية والمعاني اللغوية، وفيها العام والخاص والمجمل والمبين، و الظاهر والمؤول، وما يحتمل وجها، وما يحتمل وجهين فأكثر، وما تتشابه فيه المعاني وتتعدد فيه الوجوه..

لذلك فقد حمل حجة إعجازه في ذاته ليدل عليه الحائرين، ويأخذ بأيدي الشاردين لنور هدايته وكمال بيانه.. لذلك اخترنا هذا الموضوع لنبين من خلاله عِظم القرآن وبلاغته وحسن عرضه للأشياء والحقائق.

من أعاجيب السور القرآنية سورة الحج

خلق الله سبحانه وتعالى للأجنة كما جاء في سورة الحج

أجمل الله عز وجل أطوار خلق الإنسان في مواضع من كتابه وفصلها في مواضع أخر؛ لبيان قدرته سبحانه وتعالى على البعث وغيره، فمن مواضع الإجمال قوله تعالى: يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ[الزمر:٦].

ومن الآيات التي أوضح الله فيها تلك الأطوار على التفصيل قوله تعالى في سورة الحج: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ)[الحج:٥].

وقد ذكر الله تعالى تلك الأطوار مع حذف بعضها في سورة غافر، فقال: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ[غافر:٦٧].

والعلة في ذلك - والله أعلم: أنه لما كانت آيات سورة الحج جاءت في معرض الرد على منكري البعث اقتضت التفصيل في ذكر الأطوار كلها.

قال الكرماني في "البرهان في متشابه القرآن :"وفصّل في الحج فقال: فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ - إلى قوله - وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى فاقتضى الإجمال الحذف، والتفصيل الإثبات، فجاء في كل سورة بما اقتضاه الحال .والبلاغة الإيجاز والإطناب.

قال الزمخشري - فيما نقله السيوطي في الإتقان :- كما أنه يجب على البليغ في مظان الإجمال أن يجمل ويوجز، فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل أن يفصل ويشبع.

إنّ القرآن الكريم لا يَخلوا مِنَ الإشارات العلميّة العَظيمة والتي يَشهَدُ عليها العِلمُ الحديث، وَمِن هذِهِ المُعجِزات هِيَ خَلقِ الإنسان وَهُوَ فِي بطنِ أمّهِ ، لذلِكَ هُناكَ مُعجِزَة علميّة فِي هذِهِ الآية والتي تتحدّث عَن طَورِ الإنسان مُنذُ بدايةِ خلقه إلى أن أصبح إنساناً مُتكامِلاً، وهذا الإعجاز قَد تحدّى العلماء بالوصف الذي لا مثيل له

مراحل تكوين الجنين في القرآن تبين أن طورِ الإنسان يَمر بِعدّةِ مَراحِل أساسيّة مُتسلسلة وَهِيَ:

النطفة: والنطفةِ مَعناها هِيَ تخالُطِ ماءِ الرّجُل مَع ماءِ المرأة عَن طَريقِ الجماع؛ بحيث يصبحان نُطفَة، وَمِن عَجائِبِ قدرةِ الله تعالى أنّ تِعدادِ الحيواناتِ المَنَوِيّة التي تفرِزها الخِصيَتان ما بين (٢٠٠-٣٠٠) حَيوان منوي فِي الدُفعَةِ الواحدة، والمرأة تَقُومُ على إنتاج بُويضَةٍ واحِدَة عليها تاج مُشِع، والكَميّات الهائلة التي تَصِلُ إلى قَناةِ فالوب، لا يخترِقُ هذِهِ البويضة سِوى حيوان منوي واحِد لِتَكوين بُويضَة مُلقّحة تُعرفُ بالنطفة، وبعدَ مرور ١٤ يوماً تتكَوّن العَلَقَة.

العلقة: ذُكِرت كلمَةِ عَلق خمس مرّاتٍ فِي القرآن الكريم، وَهِيَ تَشبيه بقطعَةِ العلق كالدمِ الجامد أو كالدودة التي تَعيشُ فِي البِرَك والمُستنقعات، وَهُوَ أقرَبُ وَصفٍ لِطورِ الإنسان عِندَما تتكاثر الخلايا وَتنقَسِم لِتُصبِحَ عبارَة عَن كُتلَةٍ مِنَ الخلايا وَتَتَعلّقُ بجدارِ الرّحِم، وَيبقَى هذا الطَور إلى اليوم الأربعين، وما يُمَيّز العلقة أنّها تتكوّن مِن طبقتين خارجيّة (مُغَذية وآكلة)، وداخِليّة (وَهِيَ التي يَخلِقُ فِيها الله الإنسان).

المُضغَة: ذُكِرت كلمَةِ مُضغَة فِي القرآن الكريم ثلاث مرّاتٍ وَهِيَ تَدل على قِطعَةٍ صَغيرَة مِنَ اللّحم بقدرِ ما يَمضَغَهُ الإنسان، وتبدأ هذِهِ المَرحَلة فِي الأسبوع الثالث بمرحلتين هُما: مضغة غير مخلّقة: تبدأ مِنَ الأسبوع الثالث حَتّى الرابع، ولا يكونُ في هذه المرحلة هُناكَ أي ظُهورٍ لأيِّ عُضو وجِهاز.

مُضغَة مُخَلّقة: تبدأ هذِهِ المَرحَلة مِن بِدايَةِ الأسبوع الرابع حَتّى الشهر الثالث، وهناك تَغيّراتٍ مُدهِشَة للجنين، وَتَنمُو الخلايا وتتمايز ليصبح عِبارة عَن إنسان قويم صغيرُ الحَجِم.والدليل على هذا الأمر قَولِ الله تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) سورة الحج:٥ .

العظام: فِي هذا الطور تتحَوّل قِطعَةِ المُضغَة وَهِيَ عِبارَة عَن قِطعَةِ لَحِم إلى هيكَل عَظمِي فِي الأسبوع السابعِ تَحديداً ليكُونَ على شَكلِ صُورَةٍ آدميّة. كساءُ العظام باللحمِ والعضلات.

(نشأةِ الجنين): يقول تعالى (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا) ففي بِدايَةِ الأسبوع التاسع تُصبِحُ الأعضاء جاهِزَةً بأن تَقُومَ بِوظائِفِها، وفي هذِهِ المَرحَلَة يَنفُخُ الله تعالى الروح على الجنين بَعدَ مرورِ أربعةِ أشهر من الحمل. قابِليّة الحياة للجنين: في الأسبوع السادس والعشرين يَستَطيعُ الجنين العيش خارجَ الرحم وَقَد اكتَمَلَ نُمُوّ الأجهزة، وبتقديرِ القرآن الكريم مَرحَلَة الحمل والحضانة بثلاثين شهراً بِقَولِهِ تعالى: (حَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا) سورة الأحقاد:١٥.

وبيّن الله تعالى الحضانة بأنّها عامَين بقولهِ تعالى :(وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) سورةِ لقمان:١٤، وبالتالي عِندَ طرحِ ٣٠ شهر من ٢٤ شهر يساوي ٦ أشهر، وهذا يَدُلّ على قُدرةِ الجنين على العيش بالشهرِ السادس، ولكن يحتاجُ إلى الوَقت ليأخذَ الغِذاء والطعام مِنَ الأم عَن طَريقِ المَشيمَة ليكبر ويصبح أكثر وزناً، ويكون جهازهُ المناعي والأعضاء أيضاً أقوى.

تصوير سورة الحج لقضية البعث

سار القرآن الكريم على الأسلوب نفسه في إثبات البعث والنشور وهو يستعرض آيات الكون الصغير الذي يتألف من أصغر أجزاء الذرة وجزيئاتها، قال تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (سُورَةُ الْحَجِّ: ٢٢/٥)

أيْ، إن كنتم في ريب من الحشر والنشور، فانظروا إلى هذا الحدث الذي يقع في ماهيتكم، وتأملوا هذا الدليل الأنفسي الآتي:

إن الله عزّ وجلّ خلقكم بادئ الأمر من تراب، وصنع خميرة ماهيتكم من بعض العناصر المبثوثة في الأرض، وخلط هذه العناصر ببعضها مكوّنًا منها حساء بروتينيًّا، ثم نفخ الروح فيها لتتحول إلى قطرة من ماء مهين، ثم إلى علقة فمضغة مخلقة وغير مخلقة، وعندما أصبحتم مضغة خلقكم أو أماتكم؛ أي سقط بعضكم من بطن أمه قبل استكمال مدة

الحمل، واستكمل بعضكم الآخر مسيرته وأخذ صورة تناسب بذرة ماهيته ونال شرف التكريم بسرّ "أحسن تقويم."

وقد تضمنت الآيات الأربع والعشرين الأولى من سورة الحج محوري الخلق والبعث، وتبدأ بإنذار الناس من الساعة والتحذير من الريب فيها، وتوكيد الساعة بما لا ريب فيها، وان الله يبعث من في القبور.

والخطاب في هذه الآيات الأربع والعشرين عام إلى كل الناس، لاسيما وان العرب في الجاهلية كانت لا تعرف أو لا تؤمن بشيء من المعاد رغم إيمانها بالله إلها خالقا ومبدئنا، لكنه ليس معيدا، ولذلك شدّد القرآن على عقيدتين نفي الشرك وتوكيد المعاد والبعث، وقد كان نفي المعاد والبعث وتوكيد الشرك هما محوري ديانة العرب المشركين في الجاهلية.

ويؤكد نولدكه المستشرق الألماني على أن محور خطاب القرآن هو المعاد في بيئة لم تكن تعرف أو تؤمن بالمعاد.

وضمن تلك الآيات ينتقل القرآن الى تخصيص خطابه بفئة من هؤلاء الناس وتبدأ من الآية " ٣ " وتشمل الآية " ٤ " حيث تبدأ بقوله تعالى "ومن الناس" وهم فئة تجادل جدل الخصومة وليس جدل الاقناع

لأنها لا تستند الى علم بل الى التقليد والاتّباع، لذلك لا يجادلهم القرآن بل يعود في الآية "٥" الى خطاب الناس عامة حيث يبدأ بقوله تعالى "يا أيها الناس" مستدلا على البعث والمعاد بالنشأة الاولى للإنسان من التراب، ثم بالنشأة الثانية له في الأرحام، ثم في الأجل المسمى له، ويقرن تلك المسيرة في الخلق بإحياء الارض بعد موتها بإنزال الماء عليها فتهتز وتربو.

وفي الآية السادسة يربط بين الحياة بعد الموت أو البعث بصفة أو اسم الحق لله تعالى وأنه يحيي الموتى لأنه سبحانه وتعالى هو الحق وفي الآية السابعة يؤكد أمر الساعة ويقرنه بالبعث من القبور لكنه يعود في الآية "٨" إلى الآية "١٣" بتخصيص الخطاب الى فئة أخرى من الناس، وهي فئة أصابها الغرور بما اعتقدت وبما كسبت من الدنيا، وهي تجادل الله في الخلق والبعث والمعاد وجدلهم هذا لا يستند الى علم او هدى او كتاب منير كما يصف القرآن أحوالهم تلك. ويرى المفسرون أن هذه الفئة تختلف عن الاولى في الآية "٣" بأنهم هم رؤساؤهم بينما الفئة الاولى هم أتباعهم لقوله تعالى في وصفهم "ويتبع كل شيطان مريد."

وقد دأب العرب المشركون في محاججتهم للنبي الكريم "صلى الله عليه واله وسلم" والقرآن العظيم على عدم الاستناد الى علم او هدى أو كتاب منير، لأنهم أميون لم يقرأوا كتابا ولم يستنيروا بنور العلم الا علم

الكهانة الذي ضعفت حجته أمام القرآن وأما البلاغة فإنها لم تكن لهم علم وإنما سليقة فُطروا عليها ولذلك لم يحاججوا القرآن في بلاغته، وقد فعلها من بعدهم أقوام في تاريخ الاسلام ممن أطلق عليهم الزنادقة بعد ان صارت البلاغة علم واللغة قواعد وقد دُحضت حجتهم.

واذا كان القرآن يحاجج الناس عامة بالخلق في الآية "٥" من أجل توكيد البعث والمعاد، فانه لايحاجج هذه الفئة من الناس التي أصابها غرور الكسب ورغد العيش وعبر عنها بإثناء العطف وهو التبختر في قوله "ثاني عطفه" بل شرع القرآن في الآيات من "١٤" الى "٢٤" في توكيد المعاد والبعث والجنة والنار كحقائق في الكون، وخاتمة آية "١٤" التي تبدأ بالتوكيد تؤكد هذا في قوله "إن الله يفعل ما يريد" فالبعث والمعاد والجنة والنار يدخل في إرادة الله تعالى، وهي لذلك حقائق في الكون لأنها من الخلق بالحق وتوكيد من خلال البعث والمعاد على أن خلق السماوات والارض لم يكن لهوا ولم يكن باطلا بل هو الخلق الحق الذي يترتب عليه وينشأ عنه الحق في الثواب والعقاب في البعث والمعاد.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ

لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (سُورَةُ الْحَجِّ: ٢٢/٥).

لقد ورد في آخر الآية، أنكم ترون الأرض وكأنها هامدة قاحلة عاجزة عن الإنبات والعطاء، وما إن نُنزل عليها الماء الغزير من السماء، حتى تبدأ بالحركة والاهتزاز، فينبت نباتها بقوة، وينمو زرعها بشكل سريع. أجل، ويخلق الله سبحانه زوجين من كل شيء، وترسم يد القدرة مشاهد من الجمال خلابة تبهج القلوب وتبهر الأنظار.

أوَ يعجز القدير المطلق الذي أقام الكون عن إقامة حياة بعد الموت لبني آدم ؟

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سُورَةُ الْحَجِّ: ٢٢/٦)؛ فجميع ما ترونه حقّ لأنه من الله تعالى، هو الذي سيحيي الموتى وهو على كل شيء قدير، يكشف لكم قدرته من خلال تجليات خلقه، ومن خلال تدبيره لآلاف الوقائع والأحداث التي تحيط بكم.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (سُورَةُ الْحَجِّ: ٢٢/٧)؛ لا ريب أن كل هذه الآيات تشير إلى قيام الساعة، وتؤكد على أن الله سبحانه وتعالى سيبعث كل مَن في القبور مرة أخرى ويحشرهم من جديد.

ومما هو واضح في كل هذه الآيات، أن الله تعالى أثبت البعث من خلال الأحداث التي تقع في الأرض التي نعيش عليها؛ فكما أنه تعالى يحيي البذور وينبتها في ربيع جديد بعد تعفّنها وموتها تحت الأرض، فكذلك سيحيي الإنسانَ الذي يتآكل جسده في القبر ويتبعثر؛ في يوم البعث والنشور الذي هو ربيعه الثاني.

إن الخالق الذي يبعث النباتات في كل ربيع ويفرشها أمام أنظارنا لمحيي الموتى حتمًا وباعثهم مرة أخرى.

فالبعث والمعاد يؤكد ذلك الحق في الكون والخلق، ولذا فهما من حقائق الكون ومن الحق في الخلق يقول الله تعالى "وما خلقنا السموات والارض ومابينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق " سورة الدخان آية، ٣٩، والآية في ضميمتها الحق في البعث والمعاد وقوله "وما خلقنا السموات والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا" سورة

ص، آية ٢٧، وعندما يظن المشركون بباطل الخلق وعدم الحق في الكون فانهم لا يظنون بالبعث والمعاد والحساب وتلك جزء من عقيدة مشركي العرب قبل الاسلام، وهكذا، فالبعث والمعاد من حقائق الكون ومن الحق في الخلق.

وعلى مستوى تلك الحقائق الكونية، ويضاف اليها التشريعية يكون الحج، فالآيات من " ٢٤ " الى " ٣٧ " التي أعقبت آيات الخلق والبعث والمعاد تكون هذه الآيات في الحج وهي بذلك تنتظم في سياق الحقائق الكونية، لكن يضاف اليها التشريعية، فمن وسائل وآليات القرآن هو إنتظام الموضوعات في سياق واحد ولو من طرف خفي رغم اختلافها في موادها وقضياها.

ومن الأدلة على البعث : ماء الرجل (المني) . ووجه الاستدلال بهذا الدليل على البعث، أن المني إنما يحصل من فضلة الهضم، وهو كالطل المنبث في أطراف الأعضاء، فإذا أراد الإنسان إخراجه تجمع من أجزاء البدن، وأخرجه ماء دافقا إلى قرار الرحم ليتكون إنساناً جديداً، فإذا

كانت هذه الأجزاء متفرقة فجمعها، وكون منها ذلك الشخص، فكيف يمتنع عليه جمعها مرة أخرى من التراب ؟

وقد تكرر هذا الدليل في مواضع أخر من كتاب الله منها في سورة الحج(٥ - ٧):

{يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور }.

وفي سورة القيامة: (٣٧ - ٤٠){ أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى }، وفي

سورة الطارق: (٥- ٨) { فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب * إنه على رجعه لقادر }.

تأثر المسلمين بنزول سورة الحج

أثرت سورة الحج في نفوس المؤمنين عند نزولها، فحثتهم على العمل والإيمان والصلاح..
ومما يدل على ذلك ما جاء عند قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ).

أورد الإمام أبو جعفر ابن جرير مستند من قال ذلك في حديث الصور من رواية إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن رجل من الأنصار ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن رجل ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لما فرغ من خلق السماوات والأرض خلق الصور ، فأعطاه

إسرافيل ، فهو واضعه على فيه ، شاخص ببصره إلى العرش ، ينتظر متى يؤمر " . قال أبو هريرة : يا رسول الله ، وما الصور ؟

قال : " قرن " قال : فكيف هو ؟ قال : " قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات ، الأولى نفخة الفزع ، [ص: ٣٩٠] والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول : انفخ نفخة الفزع . فيفزع أهل السماوات وأهل الأرض ، إلا من شاء الله ، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر ، وهي التي يقول الله تعالى : (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) [ص : ١٥] فيسير الله الجبال ، فتكون سرابا وترج الأرض بأهلها رجا ، وهي التي يقول الله تعالى : (يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة) [النازعات : ٦ - ٨] ، فتكون الأرض ، كالسفينة الموبقة في البحر ، تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها ، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح .

فيمتد الناس على ظهرها ، فتذهل المراضع ، وتضع الحوامل . ويشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة ، حتى تأتي الأقطار ، فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها ، فترجع ، ويولي الناس مدبرين ، ينادي بعضهم بعضا ، وهو الذي يقول الله تعالى : (يوم التناد يوم تولون

مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد) [غافر : ٣٢ ، ٣٣] فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ، فرأوا أمرا عظيما ، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به ، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل ، ثم خسف شمسها وخسف قمرها ، وانتثرت نجومها ، ثم كشطت عنهم " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك " قال أبو هريرة : فمن استثنى الله حين يقول : (ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله) [النمل : ٨٧] ؟ قال : أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء ، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ، وقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم ، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه ، وهو الذي يقول الله : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) .

قال الترمذي : حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا ابن جدعان ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما نزلت : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم) إلى قوله : (ولكن عذاب الله شديد) ، قال : أنزلت عليه هذه ، وهو في سفر ، فقال : " أتدرون أي يوم ذلك؟ " فقالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " ذلك يوم يقول الله لآدم : ابعث بعث النار

. قال : يا رب ، وما بعث النار ؟ قال : تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة " فأنشأ المسلمون يبكون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قاربوا وسددوا ، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية " قال : " فيؤخذ العدد من الجاهلية ، فإن تمت وإلا كملت من المنافقين ، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة ، أو كالشامة في جنب البعير " ثم قال : " إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة " فكبروا ثم قال : " إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة " فكبروا ، ثم قال : " إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة " فكبروا ، قال : ولا أدري أقال الثلثين أم لا ؟

فالحث على العمل وزيادة الإيمان كان أمرا تحفيزيًا من مقاصد سورة الحج الكريمة.

ومن آياتها المؤثرة أيضًا قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ والمطلوب".

يَقُول تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى حَقَارَة الْأَصْنَام وَسَخَافَة عُقُول عَابِدِيهَا " يَا أَيّهَا النَّاس ضُرِبَ مَثَل " أَيْ لِمَا يَعْبُدهُ الْجَاهِلُونَ بِاَللَّهِ الْمُشْرِكُونَ بِهِ " فَاسْتَمِعُوا لَهُ أَيْ أَنْصِتُوا وَتَفَهَّمُوا إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُون اللَّه لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اِجْتَمَعُوا لَهُ " أَيْ لَوْ اِجْتَمَعَ جَمِيع مَا تَعْبُدُونَ مِنْ الْأَصْنَام وَالْأَنْدَاد عَلَى أَنْ يَقْدِرُوا عَلَى خَلْق ذُبَاب وَاحِد مَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ كَمَا قَالَ الْإِمَام أَحْمَد حَدَّثَنَا أَسْوَد بْن عَامِر حَدَّثَنَا شَرِيك عَنْ عُمَارَة بْن الْقَعْقَاع عَنْ أَبِي زُرْعَة عَنْ أَبِي هُرَيْرَة مَرْفُوعًا قَالَ " وَمَنْ أَظْلَم مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُق كَخَلْقِي فَلْيَخْلُقُوا مِثْل خَلْقِي ذَرَّة أَوْ ذُبَابَة أَوْ حَبَّة " وَأَخْرَجَهُ صَاحِبَا الصَّحِيح مِنْ طَرِيق عُمَارَة عَنْ أَبِي زُرْعَة عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " قَالَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ أَظْلَم مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُق كَخَلْقِي فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّة فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَة " ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَيْضًا " وَإِنْ يَسْلُبهُمْ الذُّبَاب شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ " أَيْ هُمْ عَاجِزُونَ عَنْ خَلْق ذُبَاب وَاحِد بَلْ أَبْلَغ مِنْ ذَلِكَ عَاجِزُونَ عَنْ مُقَاوَمَته وَالِانْتِصَار مِنْهُ لَوْ سَلَبَهَا شَيْئًا مِنْ الَّذِي عَلَيْهَا مِنْ الطِّيب ثُمَّ أَرَادَتْ أَنْ تَسْتَنْقِذهُ مِنْهُ لَمَا قَدَرَتْ عَلَى ذَلِكَ هَذَا وَالذُّبَاب مِنْ أَضْعَف مَخْلُوقَات اللَّه وَأَحْقَرهَا وَلِهَذَا قَالَ " ضَعُفَ الطَّالِب وَالْمَطْلُوب " قَالَ اِبْن عَبَّاس : الطَّالِب الصَّنَم وَالْمَطْلُوب الذُّبَاب .

ففي هذه الآية تأثير بتحدي القرآن وإعجازه للبشر بأن يخلقوا كخلق الله سبحانه.

للقرآن أثر في النفوس عجيب، وقدرته على جذب القلوب أعجب، يقول الشيخ «محمد متولي الشعراوي»في تفسيره: «إنه أي القرآن يخاطب ملكات خفية في النفس، لا نعرفها نحن، ولكن يعرفها الله خالق الإنسان، وهو أعلم به، هذه الملكات تنفعل حين تسمع القرآن الكريم، فتلين القلوب، ويدخل الإيمان إليها، ولقد تنبّه الكفار إلى تأثير القرآن الكريم في النفس البشرية تأثيرًا لا يستطيع أن يفسره أحد، ولكنه يجذب النفس إلى طريق الإيمان، ويدخل الرحمة في القلوب.

لذلك كان أئمة الكفر يخافون أكثر ما يخافون من سماع الكفار للقرآن الكريم، ويحاولون منع ذلك بأي وسيلة، ويعتدون على من يتلو القرآن الكريم، ولو أن هذا القرآن الكريم لم يكن كلام الله الذي وضع فيه من الأسرار ما يخاطب ملكات خفية في النفس البشرية، ما اهتم أئمة الكفر بأن يستمع أحد للقرآن الكريم، أو لا يستمع، ولكن شعورهم بما يفعله كلام الله، جعلهم لا يمنعون سماع القرآن الكريم فقط، بل قالوا كما يروي لنا القرآن الكريم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ.{

وهكذا نعرف أنه حتى أهل الكفر كانوا لا يمنعون سماع القرآن الكريم فقط، بل يطلبون من أنصارهم أن يلغوا فيه، ومعناها يشوشرون عليه، ولا يمكن أن يكون هذا هو مسلكهم، وتلك هي طريقتهم إلا خوفًا مما

يفعله القرآن الكريم في كسب النفس البشرية إلى الإيمان، حيث إن مجرد تلاوته تجذب النفس الكافرة إلى منهج الله.»

قال «عمر بن الخطاب» عند سماعه القرآن قبل أن يسلم: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!»، ويقول: «فلما سمعت القرآن رقَّ لي قلبي، فبكيت ودخلني الإسلام.«

وعندما جاء «عتبة بن ربيعة» إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقرأ عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- أوائل سورة فصلت، فرجع إلى قريش قائلًا: «إني واللهِ قد سمعت قولًا ما سمعتُ بمثلِه قط، والله ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة، يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها بي، خلّوا بين هذا الرجل وبينَ ما هو فيه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعتُ نبأ".

يقول الأستاذ «سيد قطب» في تفسيره: «للقرآن بصائر تهدي، ورحمة تفيض، لا تبلغ خارقة مادية من الإعجاز ما يبلغه من أي جانب من الجوانب، شاء الناس المعجزة في أي زمان، وفي أي مكان؛ لا يُستثنى من ذلك من كان من الناس، ومن يكون إلى آخر الزمان، فهذا جانبه التعبيري، ولعله كان بالقياس إلى العرب، أظهر جوانبه بالنسبة لما كانوا يحفلون به من الأداء البياني، ويتفاخرون به، ها هو ذا كان، وما يزال إلى اليوم معجزًا، لا يتطاول إليه أحد من البشر، تحداهم الله به، وما يزال هذا التحدي قائمًا، والذين يزاولون فن التعبير من البشر، هم

أعرف الناس بأن هذا الأداء القرآني معجز؛ سواء كانوا يؤمنون بهذا الدين عقيدة، أو لا يؤمنون، فالتحدي في هذا الجانب قائم على أسس موضوعية، يستوي أمامها المؤمنون والجاحدون، وكما كان كبراء قريش يجدون من هذا القرآن في جاهليتهم ما لا قبل لهم بدفعه عن أنفسهم، وهم جاحدون كارهون؛ كذلك يجد اليوم وغدًا كل جاهلي جاحد كاره ما وجد الجاهليون الأولون، ويبقى وراء ذلك السر المعجز في هذا الكتاب الفريد، ذلك السلطان الذي له على الفطرةمتى خُلِّي بينه وبينها لحظة، وحتى الذين رانت على قلوبهم الحُجُب، تنتفض قلوبهم تحت وطأة هذا السلطان، وهم يستمعون إلى هذا القرآن، إنه قاهر غَلاَّب بذلك السلطان الغَلاَّب.»

وقد أجاب القرآن الكريم على المضطربين والشاكين بأسلوب مؤثر مقنع، فلم يترك القرآن الإنسان مضطربًا في الأسئلة التي قد تخطر بباله، وإنما عرضها، ورد عليها ردًا عقليًا شافيًا، يطمئن به القلب الباحث عن الحق، ومن هذه الأسئلة: {وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا.{

عرض القرآن هذا السؤال ورد عليه:

}أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}.{وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ.{

ورد القرآن فقال:

}قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَآ أَنتُم مِّنْه تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الذِي خَلَقَ السَّمَواتِ وَالأرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاّقُ الْعَلِيمُ.{

}فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا{

ويرد القرآن:

}قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ{

وكأن القرآن يخاطبنا ويقول: إذا عرفت أيها الإنسان حقيقة بدايتك أيقنت مـآل نهايتك!

القرآن الكريم مُـهذب النفوس ورافع راية العدل

إنك حين تُـقبل على كتاب الله عز وجل تُدرك أنك تسير نحو صرح كبير من المكارم والحضارة والحب، فحين تأتي للأخلاق تجده أسمى كتاب عرفته البشرية مؤسسًا لمكارم الأخلاق الحميدة، وهذا ما جعلها الغرض العام من مبعثِ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "إنما بُـعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق" .

بل جعل من حسن الخُلق طريقًا موصل لحب الله وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أقربكم مني منزلاً يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا".

ولما كانت المعرفة هي العنصر الأساسي لقيام الحضارة وارتقائها ، أمر الإسلام بها وبيّن أنه لا بد أن تكون هذه المعرفة معرفة صحيحة هادفة ، ولا بد أن تقوم على أساس سليم ، وهذا الأساس السليم هو الذي يضبط معرفتنا وتفكيرنا فلا نحيد في المعرفة عن الصواب ولا ندعي مُحال , ولا نفتخر برذيلة أو نتمناها .. ولأجل هذا كان واجب على من

يسعى للمعرفة أن يعتقد إعتقادًا لا شك فيه أن الحضارة إذا قامت فلن يكتمل طريق لها في الرقي والتقدم إلا من خلال منهج مرسوم معلوم مضبوط ، فلا بد من استحضار وجهة السير قبل الشروع في أي عمل.

ولذلك كانت الحضارة الإسلامية أعظم الحضارات وأقواها حينما وجدت، وذلك لوجود الإعتقاد الصحيح الذي أعتنقه واعتقده الصحابة من رسول الله__ صلى الله عليه وسلم __ فصنعوا بيئة صالحة من إعتقادهم السليم .

وفي هذا يعترف الفيلسوف جوستاف لوبون عن فضل المسلمين حينما كانوا يُطبقون الإسلام: "لم يقتصر فضل العرب والمسلمين في ميدان الحضارة على أنفسهم فقد كان لهم الأثر البالغ في الشرق والغرب فهما مدينان لهم في تمدنهم، وإن هذا التأثير خاص بهم وحدهم فهم الذين هذبوا بتأثيرهم الخلقي البرابرة ".

ويتجلى الحُب في قرآننا تجليًا عظيمًا حيث أنزله الله تعالى حبًا في هداية عباده والأخذ بأيديهم إلى النور والهدى..

وبهذا القرآن كنا أعز الأمم بعدله وقيمه وسماحته، يقول الشيخ حسن البنا: (عرف سلفنا الصالح رضوان الله عليهم فضل القرآن وتلاوته، فجعلوه مصدر تشريعهم، ودستور أحكامهم، وربيع قلوبهم، وورد عبادتهم، وفتحوا له قلوبهم وتدبروه بأفئدتهم، وتشربت معانيه السامية أرواحهم، فأثابهم الله في الدنيا سيادة العالم، ولهم في الآخرة عظيم الدرجات، وأهملنا القرآن فوصلنا إلى ما وصلنا إليه من ضعف في الدنيا ورقة في الدين).

فضل القرآن الكريم

- في فضل مدارسة القرآن: عن أبي هريرة -رضي الله عنه - عن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال: {وما اجْتَمعَ قومٌ في بَيتٍ من بُيوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْ بِهِمُ الْمَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ} رواه مسلم وأبو داود وغيرهما.

الحرف الواحد من كتاب الله بعشر حسنات. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَن قَرأَ حَرفًا من

كِتابِ اللّهِ فلَهُ بهِ حسَنَةٌ والحَسنةُ بِعَشرِ أمْثالِها لا أقُولُ: آلم حَرفٌ ولكنْ ألفٌ حرفٌ ولامٌ حرفٌ وميمٌ حرفٌ " رواه الترمذي والدارمي .

- شفاعة القرآن لأصحابه يوم القيامة: عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " اقْرَءُوا القُرآنَ فإنَّهُ يأْتي يومَ القِيامَةِ شَفيعًا لأصْحابِهِ" رواه مسلم.

- فضل الذين يَعمَلُونَ بالقرآن: عن النواس بن سمعان رضي الله عنه يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((يؤتى بالقرآنِ يوم القيامةِ وأهلهُ الذينَ كانوا يَعمَلُونَ به، تَقدمهُ سورةُ البَقرةُ وآلُ عِمرانَ وَضَربَ لهمَا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثةُ أمثالٍ ما نَسيتهُن بعد قال كأنهما غمامتان أو ظُلتان سوداوان بينهُما شرق أو كأنهما حِزقان من طيرٍ صوافٍ تحاجّان عن صاحبِهما)). رواه مسلم.

وعند البخاري من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها

طيب. والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها.

يقول ابن القيم: أهل القرآن هم العالمون به والعاملون بما فيه ، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم.

- رفعة أهل القرآن ولو كانوا مماليك:فعن نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ أنه لَقِيَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه بِعُسْفَانَ وَكَانَ عُمَرُ رضي الله عنه اسْتَعْمَلَهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ اسْتَخْلَفْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي قَالَ اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْهِمْ ابْنَ أَبْزَى قَالَ وَمَا ابْنُ أَبْزَى فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ مَوَالِينَا فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى فَقَالَ إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ قَاضٍ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صلى الله عليه وسلم قد قال (إنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذا الكِتَاب أَقْوَاماً وَيَضَعُ بِهِ آخَرِين) رواه مسلم.

- فضل حافظ القرآن وما له من الأجورالعظيمة: عن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه: قال: كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ النَّبِي صلى الله عليه وسلم فَسَمِعْتُهُ يَقُول: (ووَإِنَّ الْقُرْآنَ يَأْتِي صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي ؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ، فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ بِالْهَوَاجِرِ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لا يُقَوَّمُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَيَقُولانِ: بِمَ كُسِينَا هَذَا ؟ فَيُقَالُ لَهُمَا: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغُرَفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذًّا كَانَ أَوْ تَرْتِيلا) رواه أحمدوابن ماجة.

أسباب النصر بثقة القرآن

يأمر الله عز وجل أهل القرآن بالاستعداد المادي والمعنوي لبطش الأعداء وظلم الخصوم فيقول: "***وَأَعِدُّوا لَهُم*** مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ "

و تأمل قوله تعالى وهو يخاطب نبيه ويرشده إلى الاهتمام بالأسباب المعنوية، وأنها هي السبب الرئيسي لاستجلاب النصر: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ - إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}

وعندما أمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام أن ينادي على الناس، داعيًا إياهم إلى الحج {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً}. قال عليه السلام: يارب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟

فقال تعالى: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل على الحجر، وقيل على الصفا، وقيل على أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجوه، فيقال إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب .

يقول محمد الغزالي - رحمه الله -: الأمة التي نزل عليها القرآن فأعاد صياغتها هي المعجزة التي تشهد للنبي عليه السلام بأنه أحسن بناء الأجيال، وأحسن تربية الأمم، وأحسن صياغة جيل قدم الحضارة القرآنية للخلق .. فنحن نرى أن العرب عندما قرأوا القرآن، تحولوا إلى أمة تعرف الشورى وتكره الاستبداد، إلى أمة يسودها العدل الاجتماعي ولا يُعرف فيها نظام الطبقات، إلى أمة تكره التفرقة العنصرية، وتكره أخلاق الكبرياء والترفع على الشعوب.

هل نأمل في نصرة ربنا لنا؟

عن ثوبان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأَكلة إلى قصعتها» فقال قائل: وقلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن» فقال قائل: وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت».

ولقد أخبرنا صلى الله عليه وسلم بأن المخرج من هذه الفتن وهذا الوهن هو القرآن، لأنه سيعالج السبب الذي من أجله ضعفت الأمة وهانت على الله.

عن الحارث الأعور قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت عَلَى عليّ رضي الله عنه فقلت: يا أمير المؤمنين ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث؟ قال: أوَ قد فعلوها؟ قلت: نعم.

قال أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ألا إنها ستكون فتنة. فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟

قال: كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى تقول: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا - يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ}، من قال به صَدَق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عَدَل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم".

ولقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا المعنى في حديثه لحذيفة بن اليمان حين أخبره بالاختلاف والفرقة بعده، فقد قال حذيفة للرسول عليه الصلاة والسلام عندما سمع ذلك: يا رسول الله فما تأمرني إن أدركت ذلك؟ قال: «تعلم كتاب الله عز وجل، واعمل به فهو المخرج من ذلك» قال حذيفة: فأعدت عليه ثلاثًا، فقال صلى الله عليه وسلم ثلاثًا: «تَعَلَّم كلام الله واعمل به فهو النجاة» .

يقول محمد الغزالي رحمه الله: لابد من جعل القرآن يتحول في حياتنا إلى طاقة متحركة.. أما أن يوضع في المتاحف أو المكاتب للبركة، أو أن نفتح المصحف ونقرأ آية أو آيات وينتهي الأمر، هذا لا يجوز.

ويقول حسن البنا رحمه الله: لم ينزل القرآن من علياء السماء على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليكون تميمة يُحتجب بها، أو أورادًا تُقرأ على المقابر وفي المآتم أو ليُكتب في السطور، ويُحفظ في الصدور، أو ليحمل أوراقًا ويُهمل أخلاقًا، أو ليحفظ كلامًا ويُهجر أحكامًا.. وإنما نزل ليهدي البشرية إلى السعادة والخير {قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ - يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} .

القرآن.. حفظ أم عمل ؟

إن الفضل العظيم لحفظ القرآن مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعمل به، فإن لم يُعمل به كان وبالاً على صاحبه، كيف لا وهو يتلو على الناس آيات لا يعمل بها، فيصير ما يقوله في واد، وما يفعله في واد آخر، فيصدق عليه قوله صلى الله عليه وسلم: «أكثر منافقي أمتي قراؤها».

يقول عبد الله بن عمر: كنا صدر هذه الأمة، وكان الرجل من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معه إلا السورة من القرآن أو شبه ذلك، وكان القرآن ثقيلاً عليهم، ورزقوا العمل به، وإن آخر هذه الأمة يخفف عليهم حفظ القرآن حتى يقرأه الصبي والأعجمي فلا يعملون به .

وهذا أبو عبد الرحمن السلمي -وهو من كبار التابعين- وكان ممن تتلمذ على يد كبار الصحابة كعبد الله بن مسعود يقول: إنما أخذنا القرآن من قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخرى حتى يعلموا ما فيهن من العمل، فتعلمنا العلم والعمل جميعًا،

وإنه سيرث القرآن من بعدنا قوم يشربونه شرب الماء، لا يجاوز هذا وأشار إلى حنكه.

فالحفظ والعمل سياج الرُقي والحضارة، وحافظ من النفاق والضلال " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا *لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ*" ، "*أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ* بِالْبِرِّ *وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ* وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ".

كيف رسخت آيات القرآن "العدل" بين البشر ؟

إليك مثال يجلي لك حقيقة هذا الأمر ؛ فقد حدث عندما سرق رجل من المسلمين من إحدى قبائل الأنصار من بني أبيرق بن ظفر بن الحارث، وكان هذا الرجل قد سرق درعًا من جارٍ له مسلم يقال له: «قتادة بن النعمان»، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له: «زيد بن السمين»، فالتُمِسَتِ الدرع عند «طعمة» فحلف بالله ما أخذها، فقال أصحاب الدرع: لقد رأينا أثر الدقيق في داخل داره.

فلما حلف تركوه، واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودي، فوجدوا الدرع عنده، فقال اليهودي: دفعها إليَّ طعمة بن أُبيرق!

فجاء بنو ظفر -وهم قوم طعمة- إلى رسول الله ، وسألوه أن يجادل عن صاحبهم، فهَمَّ رسول الله أن يعاقب اليهودي، فأنزل الله هذه الآيات من سورة النساء: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا} إلى قوله تعالى: {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا}

يقول الشيخ الشعراوي: لقد اعتقد رسول الله أن السارق هو اليهودي لوجود القرائن ضده، ولكن الوحي نزل بخلاف ذلك؛ فلم يكتم شيئًا -وحاشاه- بل قام وأعلن بوضوح وصراحة أن اليهودي بريء، وأن السارق مسلم!

وليس الأمر هينًا..!

إن التبرئة تأتي في حق يهودي اجتمع قومه من اليهود على تكذيب الإسلام، والكيد له، والطعن في رسوله ، وبثِّ الفرقة بين أتباعه.. ومع ذلك، فكل هذه السلبيات والخلفيات لا تبرِّر اتهام يهودي بغير حق.

إنه عدل الإسلام الذي أنار الطريق للناس بهدى آياته المباركة "وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ".

وخلاصة القول:

إن سر تقدمنا مرتبط بمدى علاقتنا بالله، وأننا لابد أن نجتهد في الأخذ بالأسباب المادية بالمفهوم الذي يسود بيننا الآن، ولكن بعد أن نجتهد في الأخذ بالأسباب المعنوية التي تُعني بصلاح الفرد كأساس للنجاح في كل الميادين.

فالأمة بحاجة إلى الربانيين أولاً ليكونوا بعد ذلك في المكان الذي يقيمهم الله فيه.. أما بدون رهبان الليل.. البكائين بالأسحار.. فلا أمل في تقدم

ولا رفعة بل سيستمر الوضع القائم وسيزداد سوءًا.
ألم يقل سبحانه: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ - إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ}.

وبهذا المفهوم انتصر المسلمون الأوائل على أعدائهم.. تأمل ما قاله سعد بن أبي وقاص لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو يصف له المجاهدين في معركة القادسية.. كانوا يُدَوُّون بالقرآن إذا جنَّ عليهم الليل كدويِّ النحل وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود، ولا يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة".

يقول سيد قطب رحمه الله : إن هذه البشرية - وهي من صنع الله -لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله، ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من يده - سبحانه - وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلق، وشفاء كل داء: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} ، {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} .

إدارة الوقت وترتيب المسلم لحياته على مقتضى الإسلام

للوقت أهمية كبرى وفوائد جمّة بالنسبة للإنسان كونه معمرًا في الأرض سائرًا بالإصلاح، وقد حث الإسلام على اغتنام الوقت وتنظيمه وعدم إهماله، ولوفق هذه التوجيهات الإسلامية سار المسلمون رافعون رايات المجد والازدهار والرُقي الحضاري.. لأنهم فهموا عظيم اغتنام الوقت وإدارته وحسن تنظيمه.

ما هي الفوائد التي ترجع عليَّ من إدارة وقتي وتنظيمه ؟

يمكننا أن نلخص أهم هذه الفوائد للتنظيم الإداري للوقت فيما يلي:

١.الشعور بالتحسن بشكل عام في حياتك .

٢.القدرة على التطوير الذاتي .

٣.إنجاز أهدافك وأحلامك الشخصية .

٤.تحسين إنتاجيتك بشكل عام .

٥.التخفيف من الضغوط، سواء في العمل، أو ضغوط الحياة المختلفة .

٦.استغلال مواطن القدرة والقوة قبل فوات أوانها.

٧.في حسن التنظيم استجابة للتوجيهات الإسلامية العظيمة لترتيب الحياة بجدية.

فما معنى أن أُدير وقتي وأن أنظمه ؟

إن معنى هذا أن يفهم الإنسان المسلم دينه ومقاصده، وأن يُـدرك أولويات الاهتمام الإسلامي للحياة.. وأن يبدأ بالأهم فالمهم..

وأعظم توجيه لاستغلال الوقت هو توجيه التعلم وطلب الحق حتى صار طالب العلم في جهاد لعودته "مَن خرَج في طَلَبِ العِلمِ، كان في سَبيلِ اللَّهِ حَتَّى يرجِعَ".

بل إن استغلال الوقت في نفع الناس وتعليمهم الخير من أعظم ما يجلب رضا الله عز وجل ، يقول رسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: " إنَّ اللَّه وملائِكَتَهُ وأَهْلَ السَّمواتِ والأرضِ حتَّى النَّمْلَةَ في جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلى مُعلِّمِي النَّاسِ الخَيْرْ".

يقول الحسن: "يعرض على ابن آدم يوم القيامة ساعات عمره، فكلُّ ساعة لم يحدث فيها خيراً، تقطعت نفسه عليها حسرات".

ومن جميل الأولويات الإسلامية في استغلال الوقت (الصدع بالحق) ونصرة المسلمين المظلومين، فوقت يستغل في أمر كهذا لهو مدعاة لفهم الدين؛ بل إنه من أعظم الاستغلال للوقت، اسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ"

فاستغلال الوقت يكون بما يجلب الخير للذات وللمسلمين وللناس كافة، كل ذلك بأولويته وأهميته.. لكن لا يجب على المسلم أن يضيع وقته في أي شيء غير نافع، وهذا ما جعل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «إني لأمقت الرجل أن أراه فارغًا؛ ليس في شيء من عمل الدنيا، ولا عمل الآخرة"!

هل عني الإسلام بترتيب حياة المسلم ؟

لقد اهتم الإسلام بإدارة الحياة أيما اهتمام، انظر لقول رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن

أربع خصال: عن عُمُره فيمَ أفناه؟ وعن شبابه فيمَ أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيمَ أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل فيه؟».

فهل يقدر المسلم على كسب حياته والاستفادة من عمره بغير إدارة للوقت وتنظيمه؟!

بالطبع لا، ولهذا كان التقرير الرباني الحكيم: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *}.

وما دامت لله فإنه من الواجب عليك تنظيم حياتك لاستثمارها في مرضاته جل وعلا.

ولهذا يقول الحسن البصري رحمه الله: (أدركتُ أقواماً كان أحدهم أشحَّ على عمره منه على درهمه ودنانيره).

ولهذا يقول ابو شيخة: "فالذين ينظرون إلى الوقت بعين الاهتمام هم الذين يحققون إنجازات كثيرة في حياتهم الشخصية والمهنية، وهم الذين يعلمون أن الوقت قليل لتحقيق كل ما يريدون، وعلى العكس من ذلك فإن المرء الذي لا يهتم كثيراً بالإنجازات ينظر إلى الوقت على أنه ذو قيمة قليلة".

أهمية الوقت في القرآن الكريم:

القرآن الكريم جعل للوقت أهمية عظيمة نلحظها من خلال النقاط التالية:

١.الوقت من أصول النعم. يقول الله عزَّ وجلَّ في معرض الامتنان على الإنسان وبيان عظيم فضله عليه: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ *وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ *} .

"فامتن سبحانه في جلائل نعمه بنعمة الليل والنهار، وهما الزمن الذي نتحدث عنه ونتحدث فيه ويمر به هذا العالم الكبير من أول بدايته إلى نهاية نهايته".

٢.الإقسام بالوقت. ورد التنبيه في القرآن الكريم إلى عظم الوقت، حيث أقسم الله به في مواطن كثيرة من كتابه العزيز، من ذلك قوله عزَّ وجلَّ: {وَالْعَصْرِ *إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *} ، وقوله: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى *وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى *} ، وقوله: {وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ *وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ *} ، وقوله: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ *وَالصُّبْحِ إِذَا

تَنَفَّسَ *} ، وقوله: {وَالْفَجْرِ *وَلَيَالٍ عَشْرٍ *} ، وقوله: {وَالضُّحَى *وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى *} ، وقوله: {فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ *وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ *} .

قال الفخر الرازي في تفسير قول الله تعالى: {وَالْعَصْرِ *إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *}. "إن الدهر والزمان في جملة أصول النعم؛ فلذلك أقسم الله به، ولأن الزمان والمكان هما أشرف المخلوقات عند الله، كان القسم بالعصر قسماً بأشرف النصفين من ملك الله وملكوته".

ويقول الشيخ يوسف القرضاوي: "من المعروف لدى المفسرين، وفي حس المسلمين، أن الله إذا أقسم بشيء من خلقه، فذلك ليلفت أنظارهم إليه، وينبّهَهم على جليل منفعته وآثاره"

٣.ارتباط الوقت بالغاية من الخلق. قال الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *} . أي "إلا ليُقِرُّوا بعبادتي طوعاً أو كرهاً ". وقال سبحانه أيضاً: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ} . أي "جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن وخلفاً بعد سلف" .

٤.المسارعة في الخيرات. مما ندب الله عزَّ وجلَّ إليه المسلمَ اكتساب الأوقات، والمسارعة في الخيرات، إذ يقول في كتابه العزيز: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ}، ويقول سبحانه: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}.

أهمية الوقت في السنة النبوية الشريفة:

نلحظ هذه الأهمية مما يلي:

١.الوقت نعمة عظيمة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ» ، ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: «كثيرٌ من الناس» : "أي أن الذي يُوفَّق لذلك قليل، فقد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون".

٢.الوقت مسؤولية كبرى. ففي الحديث عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال: عن عُمُره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيمَ أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه».

٣.الوقت في أفعال النبيِّ صلى الله عليه وسلم. يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه يصف حال النبيِّ صلى الله عليه وسلم بأنه: «كان إذا أوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء؛ جزءاً لله، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزأ جُزأه بينه وبين الناس».

وقد جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: «لِمَ تصنعُ هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً» .

٤.الحث على اغتنام الوقت والتحذير من إضاعته. ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً

قبل خمس: شبابك قبل هَرَمك، وصِحَّتَك قبل سَقَمك، وغَنَاءك قبل فقرك، وفراغك قبل شُغْلك، وحياتك قبل موتك»

ويقول «بادروا بالأعمال سبعاً، هل تُنْظَرون إلا إلى فقر مُنسٍ، أو غنىً مُطْغٍ، أو مرضٍ مُفْسِد، أو هرم مُفْنِد، أو موت مُجْهِز، أو الدَّجال فشرٌّ غائبٌ يُنتظَر، أو الساعة؟ فالساعةُ أدهى وأمرُّ».

مثال عملي لإدارة الوقت كما يريده الإسلام:

جاء ذلك في سورة يوسف عليه السلام، في قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ ُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ *قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ *وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ *يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ *قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ *ثُمَّ يَأْتِي

مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ *ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يُعْصِرُونَ}.

إن هذه الآيات تدل على أن يوسف عليه السلام قد رسم خطة للسنوات المقبلة، وأن التخطيط لا ينافي التوكل، بل هو من باب الأخذ بالأسباب.

كما تشير الآيات الكريمات إلى أول موازنة تخطيطٍ مبنية على أسس علمية، وازن فيها يوسف عليه السلام بين إنتاج القمح من جهة، وتخزينه واستهلاكه في مصر الفرعونية مدة سنوات القحط وسنوات الرخاء من جهة أخرى، وتتضح أركان هذه الموازنة فيما يأتي:

١- الموازنة بين الإنتاج الزراعي والاستهلاك، بهدف تخطي أعوام القحط والجدب.

٢- إن اعتبار عنصر الزمن كان واضح المعالم من خلال عدد سنوات القحط وسنوات الرخاء؛ حيث تم إعداد خطتين سبعيتين للدولة.

٣- إن هذه الموازنة كانت بمثابة خطة طويلة الأجل امتدت أربعة عشر عاماً.

٤- استخدام الموازنة باعتبارها أداة رقابيةً لضمان تنفيذ الخطة بدقة.

إنه مخطط زمني وضعه يوسف عليه السلام بإلهام من الله عزَّ وجلَّ لكسب الوقت في سنوات الرخاء؛ وذلك بمضاعفة الناتج بأسلوب علمي للإفادة منه في سنوات الجدب.

وقد عرّف أحد الباحثين التخطيط من المنظور الإسلامي بأنه: "أسلوب عمل جماعي يأخذ بالأسباب لمواجهة توقعات مستقبلية، ويعتمد على منهج فكري عَقَدي يؤمن بالقدر ويتوكل على الله ويسعى لتحقيق هدف شرعي هو عبادة الله وتعمير الكون" .

بينما عرَّفه آخر بأنه: "التفكر والتدبر بشكل فردي أو جماعي في أداء عمل مستقبلي مشروع، مع ربط ذلك بمشيئة الله تعالى، ثم بذل

الأسباب المشروعة في تحقيقه، مع كامل التوكل والإيمان بالغيب فيما قضى الله وقدّره على النتائج".

وما كان هذا المخطط المنقذ للدولة أن يؤتي ثماره بدون عمل وسعي وجدية من يوسف عليه السلام، وهو الذي قال: {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}

حيث نجد أن يوسف عليه السلام " يرشح نفسه لمنصب يقابل وزير المالية أو التموين في عصرنا الحاضر، وهو منصب يتعلق بالأرقام والإحصاءات والأموال والتخطيط والتخزين والتوزيع، وكل هذه المهمات تحتاج إلى العلم والحفظ، وهما الصفتان اللتان أبرزهما يوسف في عرض مؤهلاته بطلب الترشيح للوظيفة".

جانب من الاستفادة العملية لحسن إدارة الوقت في حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

- فَهِمَ النبي صلى الله عليه وسلم المغزى من وراء حسن إدارة الوقت وتنظيمه، فقد كان مُنظمًا حتى في نومه الشريف، انظر ما جاء عن عبدِ اللَّهِ بنِ عَمْرو بنِ العَاصِ، رَضيَ اللَّه عَنْهُمَا أَنَّ

رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "أَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَى اللَّهِ صَلاةُ دَاوُدَ، وَأَحبُّ الصيامِ إِلَى اللَّهِ صِيامُ دَاوُدَ، كانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ ويَنَامُ سُدُسَهُ وَيصومُ يَومًا وَيُفطِرُ يَومًا ". متفقٌ عليه.

فلو احتسبنا أن الفترة من بين صلاة العشاء لصلاة الفجر:

(٨) ثمان ساعات في فصل الصيف. فينام نصف الليل الأول (٤ ساعات) ويعمل ثلثه (ساعتين و ٤٠ دقيقة تقريبًا) ثم ينام سدسه وهو (ساعة وثلث).

(١٠) عشر ساعات في فصل الشتاء: فينام نصف الليل الأول (٥ ساعات) وهم ثلثه (ثلاث ساعات وثلث) ثم ينام سدسه (ساعة و ٤٠ دقيقة تقريبًا).

فيصير مجموع ما ينامه الإنسان:

(8) -ثمان ساعات في فصل الصيف.

(10) -عشر ساعات في فصل الشتاء.

وإذا اعتبرنا أن الإنسان حريص على قيام الليل واستغلال الثلث الأخير من الليل فيكون بذلك معدّل نومه:

(6 - 5) -ساعات في فصل الصيف.

(8 - 7) -ساعات في فصل الشتاء.

فانظر إلى نومه الشريف صلى الله عليه وسلم وكيف استغله في عبادة الله وتأمّل استجابته لقول الله عز وجل: "يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا".

وانظر كيف كان مدح الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وبعض صحابته في استغلالهم جزء من الوقت الذي قد يضيعه بعض الناس في النوم الزائد على الحاجة: "إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ".

- ومثال آخر يدل على عِظم استغلال الوقت في حياة المسلم في نفع الناس وإيصال الخير إليهم (دعوة النبي وجهاده)، فكم استغرقت غزواته وسراياه صلى الله عليه وسلم ؟

أولاً: الغزوة كانت بقيادة النبي، وعددها ٢٨ غزوة، قام القتال في تسع غزوات فقط، و١٩ غزوة حققت أهدافها بدون قتال، واستغرق النبي محمد في جميع غزواته سبع سنين من بعد الهجرة، وأول غزوة كانت

«وادَّان» وآخرهم كانت «تبوك»، الغزوة الأولى كانت في السنة الـ٢هـ، والغزوة الأخيرة كانت في السنة التاسعة للهجرة.

ثانيًا: السَّرايا كانت بقيادة الصحابة، وعددها ٤٧ سريَّة، واستغرقت هذه السرايا تسع سنين، وعدد قاداتها ٣٧ منهم من قام بسرية واحدة ومنهم من قام بأكثر من سرية.

وإجمال ما يضيع وقت الإنسان شيئين:

١-كل توظيف غير ملائم لوقت الفرد هو مضيع للوقت، فالمدير يضيع وقته عندما ينفقه على العمل ذي الأهمية الأقل، وقد كان يجدر به أن ينفقه على الأهم فالأهم، والأهمية هنا مقيسة بمدى تحقيق أنشطة المدير لأهدافه.

٢-بالرغم من أن جميع مضيعات الوقت يمكن التماس مُسوِّغ لها، إلا أن ما لا شك فيه أن جميع مضيعات الوقت يمكن أيضًا ترشيدها، بل استبدال أنشطة منتجة بها؛ ومن ثَمَّ فإن الفرد يبقى هو المسؤول عنها، ويبقى الحل في يده، فإدارة الوقت

مفتاحها إدارة الذات، وإن عدم إدراك الحقائق لا يعني أنها غير موجودة، لذا، فإن سوء إدارة الوقت يجعل المدير غير فعّال.

ولكي نتفادى ضياع وقتنا علينا أن نتعظ من قول ابي بكر الصديق رضي الله عنه، فلما حضرته الوفاة استدعى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأوصاه بكلمات منها: (إن لله حقاً بالنهار لا يقبله بالليل، ولله في الليل حقٌ لا يقبله بالنهار، وإنها لا تُقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة) .

هذه كلمات همس بها الصدّيق في أذن الفاروق الذي سيحمل الأمانة من بعده؛ فلا بد له إذًا من أن يكون على بصيرة بتخطيط وقته وتنظيمه، وأن يرتب أولويّاته ويحدد أهدافه حسب أهميتها، وأن يقوم بكل عمل منوط به في وقته المخصص له، فالفريضة قبل النافلة وهكذا في سائر الأمور؛ فتخطيط المسلم لوقته وحسن استثماره من الأمور التي وصّى بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو في سكرات الموت، وذلك لعلمه بأهمية الوقت وضرورة استثماره؛ لذا كان حثّه على حسن تنظيمه آخر ما تكلم به رضي الله عنه وأرضاه.

وتلك قاعدة ثمينة يمكن تلخيصها بأنه "ليس المهم أن يعمل الإنسان أي شيء في أي زمن، بل المهم أن يعمل العمل المناسب في الوقت المناسب" .

ولذلك قال الإمام ابن عقيل : "إني لا يَحِلُّ لي أن أضيع ساعة من عمري، فإذا تعطل لساني من مذاكرة ومناظرة، وبصري من مطالعة، عملت في حال فراشي وأنا مضطجع، فلا أنهض إلا وقد يحصل لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم في عشر الثمانين أشدّ مما كنت وأنا ابن العشرين".

ويُحذِّر القرآن الكريم المُفرِّطين في أوقاتهم، الذين يفوتهم العمل فيها، وينذرهم بالحسرة والندامة على ذلك التفريط يوم القيامة، قال تعالى حكاية عنهم: {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى *يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}.

لماذا يحثنا الإسلام على تنظيم الوقت وإدارته ؟

المسلم يسير في حياته منظما وقته وكل شؤونه من أجل ما أملاه عليه دينه في هذه الدنيا، ويتمثل هذا فيما يلي:

- حسن إعمار الأرض وتهذيبها.
- إفادة الناس بالخير والصلاح.
- تحقيق الهدف من الخلق وهو "جعل الحياة كلها لله وفق مرادته منا".
- حسن القيادة لأمم والشعوب.
- إظهار عظمة الإسلام في صياغته للحياة وفهمه لها.
- إقامة العدل بين الناس تقتضي حسن الإدارة والتنظيم.

وقد أبلغ الشاعر حين قال:

الوقتُ أغلى من الياقوتِ والذهبِ ** ونحن نَخسرهُ في اللهوِ واللعبِ

وسوف نُسأل عنه عند خالقِنا ** يوم الحسابِ بذاك الموقفِ النّشبِ

نلهو ونلعبُ والأيامُ مدْبِرةٌ ** تجريْ سراعاً تُجِدُّ السيرَ في الهربِ !

يا قومنا أجيبوا داعي الله

«وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31)»

هذه الآية توضح لنا أن رسالة النبي- صلى الله عليه وسلم- للإنس والجن كافة بدليل أن الله صرف له الجن وآمنوا به.

فقد جاء النبي- صلى الله عليه وسلم- مصطحبًا صحابيًا فخط له خطًا وقال له: لا تتجاوزه. وظهر أحد الجن فتلا النبي – صلى الله عليه وسلم – القرآن عليهم فرجعوا إلى قومهم مُنذرين لهم «أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ» (النبي).

«فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا»

حضروه أي شاهدوه بقلوبهم واستحضروا معانيه وتأثروا به، حتى قالوا لبعضهم بعضًا «أنصتوا». فهم الجن مقتضى ما يلزم من سماع القرآن وهو «التدبر والتأمل» وشهود المعنى، وظل هذا الشهود حتى انقضى رسول الله – صلى الله عليه وسلم- «فلما قضي» فروا إلى قومهم فرحين بهذا النور الذي ملأ قلوبهم بالحق والهداية يحملون البشارة إليهم.

«ولُّوا» هنا تفيد السرعة، ولم يقل«رجعوا» أو «عادوا». وقال «»مُنذرين» ولم يقل «مبشرين»؛ لأن التبليغ الأول للكف فيكون بإنذار؛ فقال أنذر ولم يقل بشِّر لأن البشارة للعمل الصالح، وهم لم يكن لهم عمل صالح. كما أنهم كانوا في غفلة ولن يخرجهم من شدة تلك الغفلة إلا شدة الإنذار. وقد كان الجن على شيء من الحكمة في تبليغ قومهم «قالوا يا قومنا إنا سمعنا- يهدي- مصدقًا... » أي للكتب السماوية التوراة والإنجيل.

وقد عرف الجن أن القرآن يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم لما عرفوا أن التوراة تهدي إلى الحق وكذلك الإنجيل.

«يغفر لكم» هذه هي البشارة، وقد جاءت البشارة مرتين، الأولى «يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ»، والثانية «يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ»

فالإجابة منحصرة في الاتباع للرسول والإيمان به.

استجيبوا لله وللرسول

جاء جبريل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم- فسأله: قال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا». قال: صدقتَ، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: صدقت. قال فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

قال: فأخبرني عن أمارتها؟ قال: «أن تلد الأمة ربَّتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاءَ الشاء يتطاولون في البنيان». قال: ثم انطلق، فلبثتُ مليًّا، ثم قال لي: «يا عمر، أتدري من السائل؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

السؤال الأول عن «الإسلام» اشتمل على الإيمان في الشهادة إجمالًا، وتفصيلًا في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

السؤال الثاني عن «الإيمان» اشتمل على أركان الإيمان القلبي الذي أولى سماته الإيمان – القائم على البراهين- بما غاب عن الحواس المادية كالإيمان بالله واليوم الآخر.

السؤال الثالث عن «الإحسان» يُبين ذروة سنام الدين وهو «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» هذه هي حقيقة العبودية لله، عز وجل، التي تقوم بنيانها على اليقين والاطمئنان.

هل يكفي مجمل الإيمان، أم لا بد من الإقرار بالربوبية والقيام بالعمل الصالح ؟

يقول الله، عز وجل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

قوله «استجيبوا لله» أمر يفيد الوجوب، وهو لله في الفرائض. وقوله «للرسول» مشترك في الوجوب مع التوجيه الأول، وهو للنبي – صلى الله عليه وسلم- في تبليغه للقرآن واتباع سنته وطريقته في السير على هذا القرآن. وبذلك تحصل رتبة الإسلام الكاملة.

أراد الله، عز وجل، أن تحصل رتبة الإسلام الكاملة بالإيمان؛ فتوسع في لفظة «الإجابة» وجعلها «الاستجابة» لتدل الحروف الزائدة على المعاني المطلوبة، فلما زيدت الكلمة بنية زادت معنى. فالإجابة بالقلب، والاستجابة بالعمل.

ومن أدق معاني القرآن الكريم «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ».

فماذا نفعل لو اسود القلب وران عليه؟!

ماذا نفعل لو حال الله بين المرء وقلبه؟!

يجب أن يعلم المرء أن الحول في الآية ليس للتأبيد وإنما هو متعلق باستمرار العبد في الانحراف. فإذا تاب العبد وأناب ونشطت إرادته للتوبة فالله، عز وجل، يرفع عنه هذا الحول ويوفقه للهداية، يقول النبي – صلى الله عليه وسلم-: «لَلهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلَته بأرضٍ فَلَاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيسَ منها، فأتى شجرةً فاضطجَعَ في ظلّها قد أيس من راحِلَته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمَةً عنده، فأخذ بخِطامها، ثمَّ قال مِن شدَّة الفرح: اللهمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شِدَّة الفَرح».

فالله، عز وجل، لم يقبل توبة العبد فقط؛ وإنما «فرح» بإقباله عليه. فانظر إلى استقبال من أسأت في حقه عندما تذهب إليه لتعتذر منه وبين استقبال الله للعبد التائب!

إنه كما قال ابن القيم: «السر الأعظم الذي لا تقتحمه العِبارةُ، ولا تجسر عليه الإشارة، ولا ينادي عليه منادي الإيمان على رؤوس الأشهاد؛ بل شهدَتْه قلوبُ خواص العباد، فازدادَتْ به معرفةً لربِّها ومَحبَّة له وطُمأنينة به وشوقًا إليه ولهجًا بذكره، وشهودًا لِبرِّه ولطفه، وكرمِه وإحسانه، ومطالعة لسرِّ العبودية، وإشرافًا على حقيقة الإلهية»

الاستقامة

بعد الاستجابة لله وللرسول يوجد مستويان، الأول نصل فيه إلى الاستقامة، والثاني نصل فيه إلى الإحسان.

الاستقامة يُشار إليها صراحة في قول الله، عز وجل: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا

بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ((30نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(«(31

فـ«قالوا ربنا الله» هي مرحة الإجابة القلبية الأولى.

أما «ثم» فتفيد التراخي، وهذه مرحلة الاستجابة الثانية بالأعمال.

ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي قوله «استقاموا».

والعلة من «ثم» تهيئ النفوس في التنفيذ والعمل دون تأخر؛ فيُعد النفوس أولًا، ثم يُطالبها بالعمل، وهذا التدرج أمر عظيم؛ حيثُ إنه ما من عمل إلا وأسرع إليه الصحابة. فلولا أن نفوسهم مُهيئة لما أسرعوا، ومثال ذلك إراقتهم الخمر في شوارع المدينة فور الأمر بحرمته. فالنبي، صلى الله عليه وسلم، ربى في الصحابة على سماع الأمر بسرعة حتى إن أحد الصحابة كان يصلي مرة (صلاة نفل) فنادى النبي، صلى الله عليه

وسلم عليه، فلم يجبه، فلما انتهى عاتبه النبي، فقال الرجل كنت في الصلاة، فقال له النبي ألم يقل الله «استجيبوا لله وللرسول»؟

ولذلك فالتربية النفسية والخُلقية والروحية مهمة جدًّا وهي أساس العمل؛ بل هي التي تدعو المرء للعمل. ولذلك كان التعبير بـ«ثم» يفيد هذا.

ولكي يكون السير على طريق الاستقامة صحيحًا لا بد من اتباع الشرع «فاستقم كما أمرت». فالأمر في الآية للرسول – صلى الله عليه وسلم- لأنه معصوم والله يعلم أنه سيطيقه، أما بالنسبة لنا فالأمر نفسه موجه إلينا لكن من عظيم رحمة الله أن فتح لنا باب للتوبة لعلمه بضعفنا فقال النبي: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».

فإذا وقع منا انحراف فباب التوبة مفتوح «فاستقيموا إليه واستغفروه».

أليس هو القائل: «يا عبادي إنَّكم تُخطئون بالليل والنَّهار وأنا أغفِر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفِرْ لكم، يا عبادي إنَّكم لن تَبلغوا ضَرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نَفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا...»

فمن تربوا نفسيًّا واستقاموا «تتنزل عليهم الملائكة» في حياة العبد وليس عند مماته.

وللملائكة مع القلب حديثان؛ الأول سري يؤدي إلى السكينة والطمأنينة. والثاني أعلى من الخواطر القلبية ويدركه الإنسان وكأنه يسمعه بأذنيه.. وقد أشار النبي – صلى الله عليه وسلم- إلى هذا فقال: «إن من الناس مكلمين ومحدثين وإن منهم عمرًا«» ومعنى مكلمين أي مُلهمين.

«ألا تخافوا» من المستقبل «ولا تحزنوا» مما مضى.

«وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون» نتيجة لإجابتكم لله واستجابتكم لأمره واستقامتكم على طريقه.

الإحسان

بعد أن علمنا أن الإجابة خاصة بالإيمان، وأن الاستجابة والاستقامة خاصتان بالعمل والخُلق، يأتي دور الحديث عن الإحسان. لكن لماذا قدمنا «الإجابة» المشتملة على الإيمان عل «الاستجابة» المشتملة على الإسلام، مع أن حديث النبي مع جبريل قدم الإسلام على الإيمان؟

لحقيقتين؛ أولًا: لأن الواقع الفعلي للدعوة قدم الإيمان على الإسلام. والنبي أثناء دعوته لأهل مكة لم يأمرهم بالصلاة والزكاة لكنه دعاهم لتوحيد الله أولًا.

ثانيًا: حديث جبريل مع النبي في سؤاله: ما الإسلام؟ كان جواب النبي – صلى الله عليه وسلم- له مشتملًا على التصديق وهو عين الإيمان في قوله جواب عن الإسلام«أن تشهد أن لا إله إلا الله».

هل هناك درجة أعلى وأقرب لله من الإسلام والإيمان؟ إنها درجة «الإحسان» الذي سأل جبريل النبي عنه، فأجاب عنه: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». فمن أجاب الله ورسوله واستجاب لهما وجب عليه أن يُعالج عمله وأمراضه النفسية كل حين. ومن عالج نفسه وسلم من أمراضها استحق أن يقترب من ربه فيشعر وكأنه يراه، وهذا هو الإحسان.

الكاف في قوله «كأنك تراه» تفيد الرؤية القلبية لجلال الله، فإن لم تتحقق هذه الحالة فحقق الثانية «فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

هل القرآن حمال أوجه؟

القرآن ليس حمال أوجه، بمعنى: أن ترد فيه الآية حاملة حكمًا معينًا، وتأتي آية أخرى تخالفها في نفس المعنى ونفس الحكم، (ترى فيه الرأي ونقيضه أو إثبات المبدأ وعكسه). فهذا الفهم خاطئ وغير صحيح، فالله قال: كتاب أحكمت آياته ثم فصلت. فالقرآن مُحكمة آياته ثم فصلت، أي: بيُّنت. وقال: الله نزل أحسن الحديث كتابًا.

فكلام الله عز وجل أحسن الكلام وأحسن الحديث، نُخاطب الناس به، نجعله مقدمًا على أي كلام.. لأنه أحسن الكلام. فكيف يقول قائل لا تخاطبوا الناس بالقرآن؟

مع افتراض حسن النية لمن قال هذا من المسلمين فإن المقصود من قولهم القرآن حمال أوجه هو أن فيه بعض الآيات التي وضعت لعدة معان، والمعنى المراد من هذه الآيات هو ما يدل عليه السياق.

فسياق الآية هو الذي يحدد معنى الكلمة التي لها أكثر من مدلول، وهذا ليس بعجيب، فهو من أساليب العربية.

وإن كان الأخير صحيحًا ؛ إلا أنه لا يصح على إطلاقه (أعني: القرآن حمال أوجه)، بل بعض الكلمات في القرآن وليس القرآن ككل.

فالقرآن «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير».

أحكمت آياته، فجاءت قوية البناء، دقيقة الدلالة، كل كلمة فيها وكل عبارة مقصودة، وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب، وكل إيماءة وكل إشارة ذات هدف معلوم. متناسقة لا اختلاف بينها ولا تضارب، ومنسقة ذات نظام واحد. ثم فصلت. فهي مقسمة وفق أغراضها، مبوبة وفق موضوعاتها، وكل منها له حيز بمقدار ما يقتضيه.

أما من أحكمها، ومن فصلها على هذا النحو الدقيق؟ فهو الله سبحانه، وليس الرسول صلى الله عليه وسلم: «من لدن حكيم خبير».

يحكم الكتاب عن حكمة، ويفصله عن خبرة.. هكذا جاءت من لدنه، على النحو الذي أنزل على الرسول، لا تغيير فيها ولا تبديل.

إن الطاعنين في هذا الإسلام لا يأتونه من مصدره المُحكم المهيمن على غيره وهو القرآن، إنهم أدركوا عجزهم أمامه فذهبوا إلى الأحاديث الموضوعة والمكذوبة يحتجون بها، ويحتجون على الإسلام بأفعال المسلمين غير الملتزمين!

ولو أنهم جاءوا إلى القرآن بقلب الباحث عن الحق لوصلوا إلى أسراره وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا.

إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نزل عليه القرآن فكانت سنته هي تطبيقه للقرآن، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يخالف القرآن كما يظن البعض من بعض الأحاديث الضعيفة المنسوبة إليه! وإنما النبي كان مطبقًا للقرآن، وما جاء مخالفًا ومناقضًا لهذا القرآن فهو الباطل الذي لم يفعله النبي – صلى الله عليه وسلم – ولم يأمر به.. ولو نُسب اليه.

وإن قال قائل: إن النبي صلى الله عليه وسلم هو من بيَّن كيفية الصلاة والحج ومقدار الزكاة.. ولم يتكلم القرآن عنها.. فهل هذا باطل؟

قلنا: هذا فهم غير سديد عن الله وعن رسول الله، فالقرآن فرض الصلاة والحج والزكاة، قال تعالى: وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

وقال تعالي: وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ.

والنبي صلى الله عليه وسلم فصّل هذا، وبين هذه العبادات للناس لقوله تعالى: وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.

فالنبي مُبين مفصل لكتاب الله.

والصلاة والحج والزكاة.. ذكرها القرآن إجمالًا والنبي فصلها، فلا إشكال هنا أصلًا؛ بل إن النبي متبع للقران مبينا عمليًا الكيفية للمجمل.

ويجب أن ننبه على أنه لا خلاف في السنة الفعلية أبدا بين المسلمين، إنما الخلاف واقع بين السنة القولية (الأحاديث المنسوبة للنبي)، فالحق فيها قبولها إن لم تخالف ما قرره القرآن ومقاصده العليّة – كما هو منهج كثير من الأصولين – فإن خالفت كانت من الأَكاذيب على النبي والراوي لها بشر يصيب ويخطئ. وهي قليلة ليست بالكثيرة في كتب السنن.

ويقول الشيخ الفقيه محمد أبو زهرة في هذا الصدد: ولا نتهجم بذلك على حديث لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهو الحكمة كلها كما قال ذلك الإمام الشافعي، فقد فسر الحكمة في قوله تعالى: (وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ...)، بأن الحكمة هي سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإذا رددنا منها ما يخالف القرآن فنحن نرد ما يجعلها فوق القرآن، وبالأحرى يكون ذلك تمحيصًا للسنة، وتبيينًا لصحيحها من سقيمها، إن عبارات القرآن التي هي نص في دلالتها، ومعانيها، فيها تنزيه لرسالة محمد

– صلى الله عليه وسلم – وتنزيه للبعث المحمدي، فإنما ندفع الريب عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولا نتهجم عليه ولا على حكمته، كتلك الآثار التي توهم أن النبي – صلى الله عليه وسلم – سُحِرَ، وكتلك الأخبار الكاذبة التي تقول إن محمدًا – صلى الله عليه وسلم – قال عن اللات والعزى ومناة الثالثة الأُخرى: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى. إنا نرد هذا وأشباهه تنزيها للرسالة المحمدية الإلهية، مهما كان راويها أهلًا للثقة، ونعدها عليه، وليس بمنزه عن الخطأ والنسيان، ودخول الغلط عليه، وأخشى أن أقول إن من يعتقد ذلك يكون كأهل الجاهلية الذين قالوا: (إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا).. وإذا كان اليهود عجزوا عجزًا مطلقًا عن أن يعبثوا بالقرآن كما عبثوا بغيره، فإنهم أتوه من ناحية تفسيره، ولكن ذلك لَا يَمَسُه، بل يَمَسُّ العقول التي لَا تمحِّص ولا تدرك، ولا تحكم بقرآن، ومقاييس العقل؛ ولذلك بقي النبع الإلهي الصافي يدركه من يتأمل ما أحيط به فينبذ الزيف، ويدرك الجوهر الصافي.

فنحن لا نرد سنة رسول الله؛ إنما نرد الدخيل عليها.

وهذا الدخيل على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سماته: تناقضه مع الأصول الثابتة الواضحة التي قررها الإسلام، ومخالفته العقل الصريح، ومخالفته الأوثق منه (القرآن).

كما أن أئمة الحديث إذا وجدوا معنى الحديث مناقضا للثابت في القرآن، أو لغيره من الأحاديث الأثبت والأشهر، بحيث لا يمكن الجمع بينهما بحال، حكموا بأنه حديث منكر شاذ لا يصح، ولو كان إسناده صحيحًا.

ولا يظن أننا نتهم رواة الأحاديث بالكذب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهم أئمة أفنوا أعمارهم في خدمة الإسلام والمسلمين، إنما نظن فيهم خيرًا، ولكن نعتقد أن ما خالف القرآن مما هو منسوب للرسول – صلى الله عليه وسلم – في كتب الأحاديث إنما هو « مدسوس » على رواة الأحاديث وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأهل الباطل لم ولن يسكينوا عن مُحاربة المسلمين في عقائدهم وفي كتبهم.. ونحمد الله أن حفظ لنا القرآن الكريم «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».

ولا يعني هذا أيضًا إنكار كل حديث يوحي ظاهره مخالفة القرآن دون البحث والتدقيق والمعرفة الصحيحة السليمة لمعنى الحديث، ومع مراعاة

الزمان والمكان، فلا ينكر الأحاديث جملة بدون دراستها إلا جاهل بالقرآن، فلا بد من دراسة الأحاديث قبل الحكم عليها.

وأكثر الأحاديث التي أخذها قليلي العلم على أنها تخالف القرآن هي أحاديث صحيحة، لكن المشكلة في تلك العقول التي تحكم على الأحاديث بظاهرها ولا تراعي الزمان والمكان.

فمثلًا حديث من بدل دينه فاقتلوه عام مطلق، والعام يرجع للمقيد في الأحاديث، وقيده حديث عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ - رضى الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - «لَا يَحِلُّ دَمُ اِمْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اَللَّهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: اَلثَّيِّبُ اَلزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ، اَلْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وهذا الحديث شرحه حديث رواه ابو داوود عن عَائِشَةَ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا، عَنْ رَسُولِ اَللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «لَا يَحِلُّ قَتْلُ مُسْلِمٍ إِلَّا فِي إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: زَانٍ مُحْصَنٌ فَيُرْجَمُ، وَرَجُلٌ يَقْتُلُ مُسْلِمًا مُتَعَمِّدًا فَيُقْتَلُ، وَرَجُلٌ يَخْرُجُ مِنْ اَلْإِسْلَامِ فَيُحَارِبُ اَللَّهَ وَرَسُولَهُ،

فَيُقْتَلُ، أَوْ يُصْلَبُ، أَوْ يُنْفَى مِنْ اَلْأَرْضِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَصَحَّحَهُ اَلْحَاكِمُ.

فاتضح أن القتل – حد الردة – ليس لمجرد ترك الإسلام، والله يقول: (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ...).

إنما لمحاربة أهله، وإلا لما لزم أن يقول الرسول في الحديث الأول: (المفارق للجماعة) وكان اكتفى بقوله: (التارك لدينه) وسكت، فتبين أن القتل هو لمن ترك الإسلام ليحاربه. وحماية النفس والدفاع عنها حق إنساني مكفول للجميع.

وقال تعالي: (كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ، اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) ، وقال: «وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ».

فرسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا يُشرِع من تلقاء نفسه ولا يأتي بشيء مخالف للقرآن، بل الله عز وجل هو الـمُـشرع لرسوله «وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ».

ويبقى القرأن مهيمنا على كل شيء، وبه العدل وفيه الهداية «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ».

ومما يدل على أن القرآن أصل هذا الدين الذي وضع القواعد والأصول والتشريعات: نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن كتابة السنة، ثم إباحته بكتابتها. وقد حاول علماء الحديث التوفيق بين النهي والإباحة، فقالوا: أن النهي كان لكي لا ينشغل الناس بالسنة عن القرآن، كما أن النهي كان لخشية اختلاط السنة بالقرآن... وهذا يدل على أن القرآن هو الأصل والأساس في هذا الدين حيثُ نـهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كتابة السنة لكي لا ينشغل الناس بالسنة عن القرآن، وهذا يدل على أهمية القرآن، ولو أن السنة أصلًا مع القرآن في وضع القواعد والأحكام العامة الثابتة لما نهى النبي عن كتابتها أبدًا.

وقد ذهب كثير من علماء المسلمين إلى الأخذ بالأحاديث التي ظاهرها التعارض والتناقض، ولكنهم استعملوا مع مثل هذه الأحاديث منهج التأويل، فردوا أمثال هذه النصوص للمحكم في الدين مؤولين إياها.. وهم هنا كمن نفى الأحاديث بسبب ظن التعارض والتناقض لأن كلاهما متفق على نفي النقص. فمن هذه الناحية اتفاق بين المسلمين على التنزية ونفي التناقض، وإن وجد اختلاف فهو قليل، وهو بسبب سوء الفهم للتعبير.

فلا حجة للطاعنين في الإسلام بما يستدلون به من أحاديث، قد تكون مكذوبة أو ضعيفة، ناهيك عن الإحتجاج بكلام بعض علمائه.. فالقرآن العظيم هو عمود الإسلام المتين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

نبذة عن الكاتب

- الاسم/ محمد أحمد عبيد
- المؤهل/ ليسانس في أصول الدين والدعوة الإسلامية من جامعة الأزهر الشريف، قسم العقيدة والفلسفة - عام ٢٠١٨م .
- كاتب، وله العديد من المقالات المنتشرة على الإنترنت (في الفكر والدين والفلسفة).
- حصل على عدة دورات في العلوم الإسلامية.
- يعيش في مصر.
- البريد الخاص به/ mohamed.ebeed572@gmail.com

هذا الكتاب يمثل مجموعة مقالات نشرها الكاتب على الانترنت في مجلات مختلفة، تدور مواضيع هذه المقالات المتعددة حول القرآن الكريم، وقد جمّعت في هذا الكتاب ــمع بعض الضبطــ ليسهل على القارئ الاطلاع عليها ومعرفتها.